

مركز جامعة الدول العربية بتونس

و

المؤسسة العربية الافريقية للدراسات و الأبحاث الاستراتيجية

تونس، 26 ماي 2015

" الأبعاد الجيوستراتيجية للمستجدات في بلدان الجوار المغاربي "

عرض للدكتور حسن الرحموني

محام بهيئة الدار البيضاء

استاذ التعليم العالي سابقا بجامعة محمد الخامس (الرباط) و بجامعة الحسن الثاني – المحمدية (المغرب)

hr@hassanrahmouni.com

& <http://www.hassanrahmouni.com>

تضم منطقة المغرب العربي اصلا ثلاثة دول من شمال أفريقيا (وهي الجزائر والمغرب وتونس)، كانت مستعمرات فرنسية سابقا، تم توسيع رقعتها الجغرافية لتضم كل من ليبيا وموريتانيا لاعتبارات ظرفية في اطار اتحاد المغرب العربي الذي تم احداثه سنة 1989. وبالتالي فان ما تهمنا في سياق هذا التحليل (المتعلق "بالدول المجاورة للمغرب العربي") هي منطقة أكبر بكثير و لا تقتصر فقط على الدول

الساحلية العشرين التي تحيط بالبحر الابيض المتوسط والمحيطه بما يصطلح تسميته «*Mare Nostrum*» بما في ذلك الدول الجزرية مثل مالطا وقبرص، ولكن أيضا الدول المجاورة الأخرى في منطقة الشرق الأوسط والخليج و الساحل، والتي، وبصرف النظر عن البلدان الساحلية، تشكل مجتمعا بشريا هائلا متواجدا في أوروبا وأيضا في الشرق الأوسط وأفريقيا، و الذي يتميز باهتمامه اليقظ بالعديد من الفرص التي يوفرها تدفق البضائع، والثروات، والأفكار وانتشار العلوم والتكنولوجيا وخصوصا تدفق الامواج البشرية في اطار حركة الهجرة. ولكن، وبصرف النظر عن المزايا المحتملة لهذه الفرص الهائلة والمدرة لنمو متبادل أساسه احتمالات تعاون ممتنعة المنال في غالب الأحيان بين هذه الدول، لا تتم مؤخرا الإشارة الى الدول الموجودة في الجناح الجنوبي، وبدرجات متفاوتة، الا كوكبر للمخاطر وليس كشركاء تنمية محتملين و حقيقيين. مما انجب في العقود الأخيرة انتشارا تدريجيا لوضعية مشحونة بالخوف وعدم الثقة المتبادلة.

وبصفة عامة، تغطي كتلة دول شمال افريقيا المقابلة لجنوب أوروبا (بما في ذلك مصر) مساحة تنتشر على أكثر من 7 ملايين كيلومتر مربع (أكبر قليلا من أستراليا، مرتين حجم الهند وتقترب شيئا ما من حجم كندا) تبلغ ساكنتها حوالي 157 مليون . وتمثل وضعيتها الاجتماعية و الاقتصادية المتدهورة الى جانب انظمتها التعليمية الهشة مع ارتفاع معدل الولادات و تقشي البطالة مصدرا حقيقيا للقلق و عدم الارتياح. و بالإضافة إلى ذلك، تتيح نماذج التعاون المختلة المعتمدة داخل حدودها فرصا حقيقية لتغذية الكثير من جوانب التهديد الإرهابي المستمد من ادعاءات متسترة وراء حركات تضليلية تدعي انتماءها للإسلام .

هكذا، و عوض اعتماد نهج جغرافي، فإن اعتماد نهج موضوعي قد يكتون سبيلا أجدى للإحاطة بالقضية المطروحة للمناقشة على نحو أفضل قصد تحديد الانشغالات الإقليمية المتعددة حاضرا ومستقبلا، والمتمثلة اساسا في: تكاثر وتنوع مصادر التهديدات الإرهابية، ارتفاع عدد الدول الفاشلة (المفلسة)، الانتشار المفرط و المتعدد الأبعاد للأسواق الغير المشروعة (حرية تنقل الأسلحة، واستفحال طرق تهريب المخدرات، والاتجار في الطاقات البشرية، وكذا الاتجار في السلع المقلدة تقليدا لتديسيا)، وانتشار الأيديولوجيات الجديدة المبنية على الافتراضات الإرهابية و المتمحورة حول تفسيرات طائفية للديانات، سهولة تبليغ (والوصول الى) الدعايات السياسية المتلاعبة بالأفكار عبر الإنترنت، وكذا القطيعة المفتوحة مع الأنظمة القائمة، الخ وهكذا يمكن تناول هذه العناصر بصفة تحليلية من خلال مقارنة مزدوجة مبنية على قراءة تحليلية لمدى تفاعل العوامل "الخارجية" التي تؤثر على التطورات الجيوستراتيجية في المنطقة مع العوامل "الذاتية" التي تولدها بلدان المنطقة و المكونة لأساس حساسيتها.

و حيث ان مفهوم **الجيوستراتيجية** (بمكوناته السياسية و الجغرافية والاقتصادية، وكذا ابعاده العسكرية) ورغم كونه صعب المنال بالنسبة للعديد من المحللين السياسيين، فانه موضوع اجماع اغليبيتهم على كونه يشمل تجلي القوة و/او السيطرة في مجال جغرافي معين حيث ان كل من **Géostratégie et Géopolitique [comportant toutes les deux la racine « géo », par référence a la géographie]** مفهومان متكاملان يرميان الى **"التحليل"** في ما يخص التصور **"الجيوسياسي"** و **"العمل الميداني"** في ما يخص التصور **"الجيوستراتيجي"** من خلال تطلعهما لمكونات نظام داخلي او دولي معين (ولا سيما نقط القوى و جوانب الضعف) التي من شأنها ان تؤخذ بعين الاعتبار في حسابات الصراعات من اجل الهيمنة.

و على هذا الاساس و في سياق "العولمة" التي تميز العهد المعاصر، تساهم الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية في التقليل من اهمية المفهوم التاريخي للحدود الجغرافية و إلى اركانها في دور ثانوي. و هكذا تؤثر عوامل متعددة (و غير واضحة الملامح في اغلب الأحيان) بصفة فعالة على الأحداث الجارية في مختلف أنحاء العالم. و تجد شمال أفريقيا نفسها في مواجهة ليس فحسب مع واقع منبثق من جوارها الجغرافي المباشر، ولكنها تعاني أيضا من انعكاسات اللعبة التي تحببها القوى العالمية الكبرى والكيانات و/أو المنظمات حديثة النشأة والمؤثرة بشكل متزايد على مسرح الاحداث. ومع ذلك، فان التحديات الجهوية التي تواجه دول المنطقة لا تقتصر فقط على التأثيرات الخارجية، لان التسيير الداخلي المختل يساهم أيضا و إلى حد كبير في تدهور الوضع وتأزيمه. و في هذا السياق وباستقراء هذه الواقع المزدوج، و بصرف النظر عما يرافقه من تعدد بؤر المواجهات العسكرية في المنطقة، يمكن تحديد مفهومين اساسيين (**البعد الجغرافي** و **الموروث التاريخي**) كمفتاحين من شأنهما أن يعطيا صورة تمهيدية مكتملة للوقوف على **"التطورات الجيوستراتيجية الجهوية في الجوار المغربي"**.

أ. **البعد الجغرافي**: يجب التساؤل في سياق هذا التحليل (**المتعلق "بالدول المجاورة للمغرب العربي"**) عن الرقعة الجغرافية الواجب تحديدها لمقاربة ناجعة و فعالة للاشكالية المطروحة: هل المُبتغى هو رقعة

المغرب العربي في حد ذاته؟ أو كما سبقت الإشارة إليه المنطقة المجاورة لحدوده ، والأكبر بكثير من مجاله الأصلي حيث لا تقتصر فقط على الدول الساحلية العشرين التي تحيط بالبحر الأبيض المتوسط بما في ذلك الدول الأوروبية ، ولكن أيضا الدول المجاورة الأخرى في منطقة الشرق الأوسط والخليج والساحل ، وأفريقيا.

وتتولد عن هذه الأهمية الاستراتيجية لموقع دول المغرب العربي الجغرافي مخلفات أساسية ذات تأثير كبير على السلم و الاستقرار بالمنطقة .

ب. الموروث التاريخي:

- لعلي وأنا بسدد الحديث عن البُعد التاريخي أجد نفسي أتذكر أغنية المرحوم " عبد الحليم حافظ" [لو حكينا يا حبيبي ، نبتدئ منين الحكاية؟] وتعود بي الذاكرة في هذا السياق الى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

- حيث أن بلدان شمال أفريقيا، وعلى غرار جاراتها المتواجدة جنوب الصحراء أوفي منطقة الشرق الأوسط ، لازالت، وسوف تظل لفترة طويلة، تجرُّ أذيال الموروث الاستعماري السلبي الناتج المنعقد من ناحية عن مخلفات مؤتمر برلين Berlin سنة 1885، و من ناحية أخرى عن الكارثة الكبرى التي أصابت الأمة العربية نتيجة لوعده بالفور المشؤوم. Balfour (1917)

- وحيث أن التاريخ سجل ولا زال يسجل مختلف انواع الاستغلال ونهب الثروات التي تفنن الغرب في ممارستها، علاوة عن استمراره الحالي في ابتكار مختلف اساليب التشريد و إحداث الفتنة، خلفا وراءه مجتمعات فقيرة و مشلولة الإرادة.

- وحيث أخيرا أنه، ورغم سلبيات الاختيارات الاستعمارية بالنسبة لمصالح المنطقة و شعوبها، فإن جل قادة هذه الدول الحديثة العهد أبدوا تمسكهم ببعض مخلفات الاستعمار (كما هو الشأن بالنسبة لمبدأ *uti possidetis juris* "لوتي بوسيداتي جوريس" على سبيل المثال)

..... و التي تحمل في أحشائها بذور النزاعات المستمرة و التفرقة السياسية المعرقة لكل أشكال التعاون البناء المحتملة و المتجلية في تعاون إقليمي متردي و حلم وحدوي مغاربي مندثر.

ج. المشهد الحالي والرؤية المستقبلية: التقلبات المحتملة لميزان القوى القومي و الجهوي

I. أوجه التقصير المؤسسي الوطني: تدبب في الإرادة السياسية بين الاختيارات "الاستبدادية" والاختيارات "الديمقراطية".

II. تدني العدل الاجتماعي داخل حدود المنطقة: متمثل في مجتمعات أكثر فقرا عما كانت عليه غداة الاستقلال.

III. تراجع القيم المجتمعية: تدني دور " الأسرة" و "المدرسة" في بناء و تقوية القيم و المعاملات.

.IV التفاهم المهول لأنشطة التهريب: كمنطقة عبور، وكمجال داخلي لتسويق الأسلحة والسلع المزيفة والهجرة الغير الشرعية.

.V مفعول وسائل الاتصال الشامل: من خلال دور "الأنترنت" في تمرير وانتشار الخطابات والمناورات السياسية المخلة بالأمن والاستقرار.

.VI مناهضة الأنظمة القائمة: من داخل الحدود الوطنية في أعقاب "الربيع العربي" و من خارجها، من خلال التهديد الإرهابي المتعدد الأبعاد و الاساليب [انتشار الفكر الإرهابي من خلال آليات الاختراق استراتيجية مستجدة، و الخلايا النائمة، و ما يُصطلح على تسميتهم بالذئاب "المنعزلة" Loups solitaires].

====< خلاصة: من خلال فتح النقاش حول "الوضع الغير المريح لجامعة الدول العربية": ما هو الموقف السليم الذي يمكن لها اتخاذه تجاه الأحداث الجارية في منطقة الشرق الأوسط؟ اخدين بعين الاعتبار:

■ الواقع الناتج عن التطورات الاقليمية تحت ظل "عالم أحادي القطب" بعد سقوط الامبراطورية السوفياتية و هيمنة القوى الغربية على تحديد الاختيارات الاساسية للمنطقة.

■ الابعاد المحتملة الناتجة عن انفلات الوضع الامني داخل كل الدول العربية العضوة في "جامعة الدول العربية" بما في ذلك النزاعات العقائدية التي اشتدت حدثها بشكل خطير.

■ الابعاد الاستراتيجية الرامية الى تغيير معالم خريطة المنطقة و اعادة خلط الاوراق بُغية توطئة المجال لتعزيز هيمنة القوى الغربية على الاختيارات الاساسية المستقبلية لدول المنطقة.